

## الاستقطاب الديني بين أطراف الصراع في الجزائر

خلال الحرب العالمية الأولى 1914-1918

*Religious polarization between the parties to the conflict in Algeria  
During the First World War 1914-1918*

1- د. أمحمد دراوي\*، مخبر المؤسسات الجزائرية عبر التاريخ ودورها في التسمية الوطنية،

جامعة خميس مليانة (الجزائر)

m.draoui@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2022 /08/03 تاريخ القبول: 2022 /10/22 تاريخ النشر: 2022 /12/31

**ملخص:** منذ أن بدأت نذر الحرب العالمية الأولى في الظهور، أيقنت الأطراف المتصارعة فيها أهمية الإسلام والشخصيات الإسلامية التي تمثله، في إمكانية ترجيح موازين القوة لصالحها، فانتهجت كل سياسة دعائية مركزة سعت إلى إحكام قبضتها على هذا المجال الاستراتيجي وتوظيفه لصالحها.

استندت الدولة العثمانية وهي طرف أساسي في الصراع إلى جانب المانيا، دعايتها على شرعيتها الدينية والتاريخية في البلاد الإسلامية السنية، بحكم مركزية مكانتها في العالم الإسلامي من خلال مؤسسة الخلافة، الأمر الذي يخولها -حسبها- حماية جميع الأراضي الخاضعة والتي كانت جزءا من ممتلكاتها في مراحل سابقة.

وفي الجانب الآخر كانت البلدان الاستعمارية كفرنسا وبريطانيا تتأهبان لمعركة مصيرية في هذا المجال، فحاولتا إضفاء الشرعية على ادعائها وأهدافها العسكرية والسياسية باستعمال خطاب ديني مشبوه ومشوب بالنقائص والتناقضات، من خلال استعمال نفوذهما على كثير من الشخصيات الدينية ذات الأثر والوزن سواء العلماء المتنورين أو شيوخ الطرق التقليديين.

نسعى من خلال هذه الدراسة إبراز مظاهر وأشكال التنافس والاستقطاب الديني وتأثيره على مصير الأطراف في الحرب من جهة وعلى العلاقات الفرنسية الإسلامية من جهة أخرى. الكلمات الدالة: الاستقطاب؛ الإسلام؛ الحرب العالمية؛ فرنسا؛ تركيا.

\*- المؤلف المرسل

## Abstract:

Since the omens of the First World War began to appear, the conflicting parties

in it have realized the importance of Islam and the Islamic figures that represent it, in the possibility of tipping the balance of power in their favour, so they pursued every focused propaganda policy that sought to tighten its grip on this strategic field and employ it for their benefit.

The Ottoman Empire, a major party in the conflict alongside Germany, based its propaganda on its religious and historical legitimacy in the Sunni Islamic countries, by virtue of the centralization of its position in the Islamic world through the institution of the Caliphate, which, according to it, entitles it to protect all the subjugated lands that were part of its possessions in stages.

On the other hand, the colonial countries such as France and Britain were preparing for a fateful battle in this field. They tried to legitimize their military and political claims and objectives by using a suspicious religious discourse tainted with shortcomings and contradictions, by using their influence on many religious figures of influence and weight, whether enlightened scholars or traditional sheikhs.

**Key Words:** polarization; Islam; World War; France; Turkey.

### المقدمة:

نعني بالاستقطاب تلك الجهود الدعائية والإعلامية التي خاضتها أطراف الصراع خلال الحرب العالمية الأولى بهدف تبرير سياساتها واستراتيجياتها وإقناع جموع المسلمين وقياداتهم السياسية والثقافية بجدوى التشبث بها والدفاع عنها ومؤازرتها وفي المقابل العمل على تقويض دعاوى المعسكر الخصم بإثبات سوء نواياه وخبث مقصده وفساد طريقته، والغاية المثلى الانتصار في الحرب وفرض معاللات جديدة لموازين القوى قاريا وعالميا.

ونظرا لأهمية العامل الديني في استقطاب الشعوب الإسلامية فقد لجأت الأطراف المتصارعة إلى توظيف رموز الدين للترويج لمخططاتهم ومشاريعهم التوسعية والاستعمارية، ولم يقتصر الأمر على الدولة العثمانية وحليفها ألمانيا بل شمل أيضا الدول استعمارية كفرنسا وبريطانيا.

تعتبر الفتوى والمواقف الدينية والاجتهاد في فقه النوازل والمقاصد اهم مظهر لتلك الدعاية المحتمدة بين مختلف الأطراف، وصار الإسلام والنصوص الدينية بما فيها القرآن والسنة الشريفة

محل قراءات وتأويلات بريئة أحيانا ومغرضة في اغلب الأحيان لتبرير أفعال وسلوكات سياسية ومصالح استعمارية، وكل طرف يدعي احقيته وصدق نواياه وسداد رايه.

### 1.الدعاية العثمانية-الألمانية:

اندلعت الحرب العالمية الأولى في اوت 1914م، ورغم ان أسبابها الظاهرة تشير الى حادثة سراجيفو بمقتل الارشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا وزوجته، فان أسبابها العميقة تكمن في التنافس بين القوى العظمى حول الريادة وكسب مناطق النفوذ. وقد كانت فرنسا وبريطانيا وروسيا على راس دول الوفاق الثلاثي في حين تعتبر المانيا والنمسا وحليفتها الدولة العثمانية في قلب المعسكر المقابل الذي عرف تاريخيا بنول الوسط.

لا شك ان الدولة العثمانية كانت في مرحلة عصبية من تاريخها، فقد توالى عليها الضربات والنكبات من كل جانب منذ أواخر القرن التاسع عشر مع تفاعلات المسألة الشرقية وحروبها ضد روسيا واليونان، وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908) في محاولات الإصلاح السياسي(الدستوري) والاقتصادي الا ان محاولاته لم تثمر النتائج المرجوة سوى تأخير سقوط الدولة العثمانية حيناً من الزمن، ويعزى ذلك أساساً الى سياسة الجامعة الإسلامية ومحاوله استغلال الأمة الإسلامية مشرقاً ومغرباً في حفظ كيان الدولة، اما خارجياً فبالتحالف الاستراتيجي مع المانيا التي كان لها هي الاخرى مآرب في منطقة المشرق وتسعى لنيل حصتها من التركة الاستعمارية.

وعلى الرغم من نجاح خصومه في الإطاحة به في 1908م، الا ان الاتحاديين ابقوا على سياسة الجامعة الإسلامية ورفعوا لواء الجهاد المقدس ضد الأمم المسيحية.

### 1.1 البيان والفتوى، الظروف والمضامين:

مباشرة بعد انضمام الدولة العثمانية للحرب الى جانب المانيا في 3 نوفمبر 1914م، اصدر السلطان محمد رشاد الخامس<sup>1</sup> بيانا يوضح فيه دوافع انخراط بلاده في الحرب، ومن الأسباب التي ساقها لذلك الإشارة الى ملايين المسلمين الذين يرزحون تحت نير الذل والهوان تحت سلطة دول الوفاق واردف بالقول ان "ثلاثة مئة مليون من المسلمين انظارهم متوجهة الى الله والكعبة ثم اليكم ...انتم انجال

1- محمد رشاد الخامس (1844-1918) آخر السلاطين العثمانيين، تولى الخلافة اثر الانقلاب على السلطان عبد الحميد في 1909 واستمر في الحكم حتى 1918م انظر: إبراهيم بك، تاريخ الدولة العلية، ط1، بيروت 1988، ص203.

السلف الصالح الذين كان يحترمهم جميع الأعداء كما انهم دافعوا عن البلاد المقدسة والقبر النبوي الشريف<sup>2</sup> ..

وقد استثنى البيان الإشارة الى المانيا لكونها -صديقة تركيا والإسلام - لكن هذا الموقف وعلى الرغم من واقعيته على اعتبار ان المانيا ليست دولة استعمارية فإنها ستكون في نفس الوقت سببا وجيها ستستغله فرنسا وبريطانيا في لضرب مصداقية التحالف القائم بين تركيا وألمانيا، ومبررا لسياستهما (الإسلامية).

ومما يلاحظ في النداء انه يوجه شطر منه بالتلميح والتصريح الى الشعوب الإسلامية الخاضعة للاحتلال والتعسف والاذلال الأوربي ومنها الجزائريين الخاضعين للهيمنة الفرنسية، اما على صعيد التعبئة العامة للمسلمين فقد صدر بالموازاة مع بيان السلطان فتوى تتعلق بإعلان الجهاد ضد الفرنسيين وتعرف بالفتوى الشريفة التي أصدرها شيخ الإسلام خيري بن عون الأركوبي بتاريخ 14 نوفمبر 1914م<sup>3</sup>.

تضمنت الفتوى عددا من الآيات والأحاديث الحاتة على الجهاد ودخول كافة المسلمين الحرب ضد الحلفاء على اعتبار انها حرب بقاء او فناء. وجاءت الفتوى في شكل خمسة أسئلة مع اجاباتها تتضمن التساؤلات الشرعية الملحة لتبرير مشروعية (الجهاد ضد دول الوفاق) وفي نفس الوقت تبرير مشروعية التحالف مع الالمان ولم تتعرض الفتوى للطلبان -رغم فظائهم في ليبيا-بحكم تحالفهم مع المانيا<sup>4</sup>. الأسئلة المطروحة تضمنت عددا من الإشكالات ذات الطابع الفقهي العقائدي على غرار: هل يكون الجهاد فرض عين على المسلمين حين اغارة (الكفار) على بلدانهم؟ وهل يصح ان يقاتل المسلمين الخاضعين للحكومات الأوروبية في حال اعلان الحرب ضد دولة الخلافة؟ وهكذا...<sup>5</sup> وكانت الإجابة بنعم بالاستناد للنصوص الدينية القطعية رغم ان المعسكر المعارض شكك في صحة الفتوى من جهة وانها لم تجب على جواز التحالف مع المانيا .

## 2.1 وسائل وأدوات الدعاية والاستقطاب:

<sup>2</sup> - التليلي العجيلي: صدى حركة الجامعة في المغرب العربي 1876-1918، كلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة، 2005، ص226.

<sup>3</sup> -عثرنا على نص الفتوى مترجما الى الفرنسية في وثائق أرشيف ما وراء البحار ANOM رقم 34H54.

<sup>4</sup> -عبد الرؤوف سنو: الإسلام والدعاية الألمانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى، بحوث تاريخية مهداة الى منير إسماعيل، تنسيق محمد مخوم واخرون، بيروت 2002، ص179.

<sup>5</sup> - ANOM رقم 34H54 op.cit

لم تكن مهمة المعسكر الألماني-العثماني سهلة او متيسرة، وكانت مجالات الحركة والعمل معقدة للغاية، فهناك مشكل التواصل بسبب اللغة من جهة ومن جهة اخرى الرقابة الشديدة التي فرضتها السلطات الاستعمارية، التي قامت بنشر عيونها في كل مكان، ما سهل كشف عدد معتبر من العملاء والجواسيس والدعاة<sup>6</sup> في مناطق مختلفة من الجزائر.

عملت أدوات الدعاية الألمانية العثمانية على توظيف إمكانات مادية ولوجستية هائلة وضعت تحت تصرف مكاتب الدعاية والمخابرات، التي جندت مئات المتطوعين من الهند الى شمال افريقيا وزودتهم بالملصقات الحائطية والمناشير التحريضية والصحف لنشرها على أوسع نطاق حتى داخل الثكنات. وقد عبر رئيس الوزراء الألماني فون بيتمان هولفيغ<sup>7</sup> على ذلك بالقول: ان على المانيا الا تحارب سلاح العدة فحسب، وانما عليها ان تصد أيضا دعايتها الكاذبة حول المانيا والنظرة الخاطئة التي تعطى عليها<sup>8</sup>.

يعتبر المستشرق ماكس فون اوبنهايم عراب الدعاية الألمانية في البلاد العربية، وقد انتبه الى أهمية استخدام الجامعة الإسلامية والجهاد ومؤسسة الخلافة في الصراع ضد الغرب بإثارة القلاقل والانتفاضات التي تمهك تلك الدول وتحطم معنويات جنودها في زمن الحرب، وصل اوبنهايم الى بيروت في 1915م وكان اول عمل قام به هو تسليم هدية امبراطور المانيا الى ضريح صلاح الدين الايوبي في احتفال رمزي حضرته شخصيات مهمة<sup>9</sup>. ثم عكف على عقد الاجتماعات الرامية الى تشكيل مكاتب الدعاية.

عمل اوبنهايم على استخدام الصحافة المحلية بالشام لتسويق صورة المانيا صديقة الاسلام من خلال تغطية أحوال الاسرى العرب في المانيا، كما عمل على اقحام علماء ومرابطون وشيوخ الطرق للدعاية،

<sup>6</sup> -تعطينا كثيرا من التقارير الفرنسية فكرة واضحة حول انتشار الدعاية الألمانية -العثمانية، من خلال المناشير والملصقات الجدارية وصور السلطان العثماني واعمال تخريب طالت منشآت فرنسية... الخ الملف A N O M 1F86 dossier panislamisme

7- يوبالت فون بتمان هولفيغ) بالألمانية (Theobald von Bethmann-Hollweg: سياسي ألماني (1856- 1921) تولى منصب المستشار في ألمانيا من 14 يوليو 1909 إلى 13 يوليو 1917. قاد الإمبراطورية الألمانية خلال معظم سنوات الحرب العالمية الأولى، المرجع:

[https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%8A%D9%88%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%AA\\_%D9%81%D9%88%D9%86\\_%D8%A8%D8%AA%D9%85%D8%A7%D9%86\\_%D9%87%D9%88%D9%84%D9%81%D9%8A%D8%BA](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%8A%D9%88%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%AA_%D9%81%D9%88%D9%86_%D8%A8%D8%AA%D9%85%D8%A7%D9%86_%D9%87%D9%88%D9%84%D9%81%D9%8A%D8%BA)

8-عبد الرؤوف سنو: المانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين، الفرات للنشر والتوزيع، 2007، ص152.

9-الغانمي فرقان فيصل جدعان واحرون، دور المستشرق ماكس فون اوبنهايم في الدعاية الألمانية للحرب المقدسة 1915-1918، دراسات استشرقيه، العدد12، العراق 2017، ص132.

التي ركزت على عيوب السياسة الفرنسية أكثر من تركيزها على صدق مساعيهم، خاصة ما تعلق بإهانة فرنسا لمسلمي الجزائر ومصادرة أوقافهم واغلاق المساجد وانتهاك الحرمات والتجنيد القسري لأبنائهم، وكانت جهود بعض الرموز المعروفة ذات دلالة في هذا الصدد، فقد أصدر كل صالح الشريف<sup>10</sup> وإسماعيل الصفايحي منشورات نشرت على نطاق واسع لتبيان عيوب السياسة الفرنسية وتوحشها تجاه الجزائريين والتونسيين أطلق عليها "بيان توحش فرنسا في القطر التونسي الجزائري والاستنجاد إليه"<sup>11</sup>. ومن أهم الكتب التي ألفها الشيخ في هذا الشأن كتابه "الجهاد فريضة مقدسة" وقد طبع بإسطنبول في سنة 1914م، في خمسون ألف نسخة. دعا فيها إلى تجسيد روح التعاون والتضامن بين المسلمين وتجاوز الأحقاد والضغائن والخلافات الهامشية، التي لا تخدم إلا أعداء الأمة، مع اتخاذ كل التدابير الحربية والاستعدادات المادية، وتمثل جهاد الأسلاف وفتوحاتهم الواسعة، كما يعتبر أن أوضاع الدول الاستعمارية كفرنسا في شمال إفريقيا وإيطاليا وليبيا وهولندا في جاوى وانجلترا بالهند وروسيا بآسيا الوسطى والقوقاز، تشجع على النفير خاصة وأنهم قلة أمام ملايين المسلمين.. مقترحا كحل لل مقاومة عملية المقاطعة الاقتصادية والعصيان المدني وعدم دفع الضرائب وتقديم الدعم المالي لدولة الخلافة.

أما الكتاب الثاني فيحمل عنوان "إرشاد العباد إلى حقيقة الجهاد"، والظاهر انه جاء ردا على فتاوى استصدرتها فرنسا وبريطانيا من علماء "معارضين" لخط الجامعة الإسلامية أو من علماء البلاط ورموز الطرق الصوفية، الذين وظفتهم البلدان الاستعمارية للرد على الدعاية الألمانية التي استثمرت في أخطاء السلطان العثماني بتحالفه مع دولة غير مسلمة بحسبهم. وقد ترجم الكتاب للألمانية في

---

<sup>10</sup> - ولد صالح الشريف في سنة 1276هـ الموافق ل 1860 في تونس، أما أصوله فمن منطقة القبائل بالجزائر، انتقلت أسرته إلى تونس في النصف الأول من القرن 19م، بعد أن اخذ مبادئ العلوم انتقل إلى الزيتونة أين تحصل على شهادة التطويح في 1887م وانتصب للتدريس بها في 1893 م بالمرتبة الثانية، وكان من طلابه محمد الطاهر بن عاشور، ثم ترقى للتدريس بالطبقة الأولى في 1894م، فبلغت شهرته الآفاق، شارك في إصلاح التعليم بالزيتونة، كما اظهر ميلا واضحا نحو الأتراك العثمانيين فمد جسور التواصل معهم رفقة نخبة من المفكرين المغاربة على غرار البشير صفر، انتقل للأستانة في 1906، انطلق في الدفاع عن قضايا تونس والجزائر بدمشق، شارك في الحرب الطرابلسية سنة 1911م، وساهم في ثورة الجنوب التونسي 1915م، كما ساهم في فكرة جمهورية شمال إفريقيا رفقة اسماعيل الصفايحي وآخرون وانخرط في العمل الوطني رفقة ثلة من الوطنيين انطلقا من سويسرا وألمانيا بعد الحرب، توفي بسويسرا سنة 1920. للمزيد انظر: احمد العباسي: الشيخان صالح الشريف واسماعيل الصفايحي، د.ن، ط1، 1987،

11 - احمد العباسي: الشيخان المجاهدان صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي، سلسلة ما اهمله التاريخ، ط1، 1987، ص ص 103-127.

1915 وإلى الفرنسية في 1916 م بألاف النسخ، ووزعت في كامل البلدان الإسلامية منها الجزائر، والحق أن الشيخ صالح الشريف يعتبر أيقونة الدعاية الألمانية بلا منازع .

كما أسهمت شخصيات أخرى في الدعاية مثل الشيخ محمد الخضر حسين واحمد توفيق المدني والخالدي صالح بن عمار<sup>12</sup>، ونظمت زيارات للمجندين خلال الحرب في إقناع المجندين في مختلف جهات القتال والتأثير على معنويات المجندين في صفوف الجيش الفرنسي، كما انتشرت منشورات دعائية محرّضة للمجندين على الفرار من الجندية أهمها منشور عثرنا عليه مكتوب باللغة الألمانية<sup>13</sup>.

يقع المنشور في صفحتين ويعلوه نداء بارز باللغة العربية (الدرجة الجزائرية) جاء فيه "أضعوا هذا الجواب في يد الالمان الذين هم مستخدمون في الجيش الفرنسي" ويتضمن المنشور بعض المعطيات الحربية الميدانية في جهات القتال والتي تشير إلى أنها في صالح دول الوسط بقيادة ألمانيا وخاصة في الجهة الشرقية ضد روسيا، إضافة إلى الإشارة للاتفاق الذي حصل بين سيدي احمد السنوسي والأتراك بفتح جهة شمال إفريقيا بمساعدة الألمان، وان الإمبراطور "فلهم" هو من سينتصر ويحقق السلام بأوروبا. ومن أكثر الأمثلة في هذا الإطار العمل الذي قام به الضابط عبد الله بوكابوية<sup>14</sup> عندما فر رفقة عدد من رفاقه من معسكره باتجاه القوات الألمانية وتأليفه لكتابه الذي شرح فيه وضعية المجندين المسلمين داخل الجيش الفرنسي، والتي وصفها بالسينة للغاية ما جعل الالمان والأتراك يعتمدون عليها في الدعاية.

## 2.فرنسا والإسلام في الجزائر:

12 - للمزيد انظر مقالنا: نظرة على مواقف وأنشطة الخالدي صالح بن عمار من قضايا التحرر العربية الإسلامية في مطلع القرن العشرين، أعمال الملتقى الدولي "دور ومساهمة الجزائريين في حركة التحرر العربي خلال القرنين 19،20، الجزائر، 20،19 افريل 2015. ص ص 233-252.

13- 1F 13 FR CAOM 91 ANOM

14 - بلقاسم بوكابوية او (الحاج عبد الله او رايح) ولد في 1871 بميلة (ناحية قسنطينة) هو ابن احد الأعيان بعد تخرجه من مدرسة بوزريعة école normale تقلد مهنة التعليم ، لكنه سرعان ما استقال منها ليتوجه إلى الانخراط في الجيش الفرنسي وحصل على رتبة ملازم في الجيش ، وكانت له علاقات بالنخبة وزعمائها كالدكتور موسى والحامي مختار، ودافع عن برنامج الشبان الجزائريين بمنطقة قسنطينة فر من الجيش الفرنسي في بداية الحرب العالمية الأولى 1915م رفقة عدد من صف الضباط والجنود نحو المعسكر المعادي، مثل كتابه الذي الفه خلال الحرب "الإسلام في الجيش الفرنسي" l'islam dans l'armée française وسيلة دعائية هامة للألمان والعثمانيين موجه ضد الحلفاء. ووزع بشكل واسع تحت اسم الحاج عبد الله بوكابوية. يبرز فيه الظروف السيفة للجنود الأهالي داخل الجيش الفرنسي ويدعوهم للتمرد والعصيان. انظر: Rabah boukabouya, l'islam dans

l'armé francaise, canstantinople, 1915,

ادرك الفرنسيين منذ الأيام الأولى للاحتلال ان نجاح مشروعهم الاستعماري في الجزائر منوط برضا رجال الدين والمؤسسات الدينية الإسلامية، ذلك ان الاسلام يمثل المحرك الرئيسي لمشاعر المسلمين وبناء قناعاتهم وصناعة الراي وتوجيه السلوك، لذلك لا غرابة ان نعثر في معظم البيانات والمراسلات بين قادة الاحتلال وعامة الجزائريين او خاصتهم من العلماء وشيوخ الطرق واهل الراي، التأكيد الدائم على احترام الدين والالتزام بمجمل الضمانات التي تعهدت بها إدارة الاحتلال تجاه الدين الاسلامي ورجاله ومؤسساته وأوقافه، إضافة الى اجزال العطايا والمنح والأوسمة مقابل التفاهمات او الخدمات التي تقدمها بعض الزعامات الدينية، والتي عادة ما تسهم في خدمة المشروع الفرنسي في الجزائر بقصد او غير قصد.

استعانت الادارة الفرنسية في الجزائر بترسانة من المستعربين والمترجمين والخبراء في الشؤون الإسلامية لصياغة سياسة دينية محكمة للتعامل مع القيادات الدينية بغية استمالتها والتأثير فيها وصولا لتوظيفها في خدمة سياستها بالجزائر وجميع مستعمراتها في افريقيا، وقد أوكلت مهمة الاشراف على هذا الشأن الى مصلحة شؤون الأهالي التي كانت مرتبطة بمصالح الحكومة العامة، تلك الهيئة التي مر عليها خبراء من أمثال دومينيك لوسيانى وجوزيف ديبارمي.

لقد بادر الفرنسيين منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الى تبني سياسة تقارب ومرونة تجاه الإسلام والمسلمين، وربما كان ذلك تحسبا لمتغيرات جيو-ستراتيجية عالمية محتملة، فعلى الصعيد الداخلي تم تخفيف بعض القيود على الدروس بالمساجد وعلى المنشورات الصحفية وانشاء الجمعيات والنوادي وافسحوا هامشا للممارسة الدينية وإتاحة المجال امام النخبة لتضطلع بأدوار اكبر في مجالات الصحافة والتأليف، كما سعت الى كسب موظفي السلك الديني وأعضاء هيئة التدريس بالمدرسة الثعالبية والقضاة والمفتيين - باستثناء رحلات الحج- التي لم يشملها القرارات، وهو في حد ذاته لقطع أسباب التأثير وتحجيم اثر الدعاية العثمانية. كما سمحت السلطات للإمام الأكبر ومفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده بزيارة تاريخية للجزائر في صائفة 1903م، وهي الزيارة التي التقى خلالها بأعيان وعلماء الجزائر، ولم يتعرض الشيخ للسياسة الفرنسية في الجزائر، بل ان من بين ما حثم عليه ترك الاشتغال بالسياسة<sup>15</sup> والانشغال اكثر بالتربية والتعليم الذي من شأنه إيجاد الجيل المثالي المتمثل لحضارته ولغته المعتر بتاريخه وهو الامر الذي يسمح حسب فكره الإصلاحى الى تحقيق النهضة المنشودة والانتصار على الاستعمار.

## 1.2 التجنيد الاجباري للمسلمين الجزائريين:

15 - انظر مقالنا: صدى زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة 1903، من خلال الأرشيف الفرنسي، المجلة التاريخية المغاربية،

تونس، السنة السابعة والاربعون، العدد 179، اوت 2020.



وتحسبا للمتغيرات العالمية ظهرت فكرة التجنيد الاجباري للجزائريين منذ 1908م، من خلال المشروع الذي طرحه ميسيمي والذي تحول بعد مناقشات مثيرة وتجادبات على مستوى الطبقة السياسية والنخبة الى قانون في سنة 1912م، وامتألت الصحف بالتحاليل والآراء المختلفة والتي افضت على الصعيد الرسمي، وهو القانون الذي مثل قمة التعسف الإداري والظلم الاستعماري.

رغم ان جانبا من النخبة الاندماجية رحبت بالقانون وأصدرت بيان الشباب الجزائري<sup>16</sup> وطالبت بتعديله بما يسمح للجزائريين بممارسة الخدمة العسكرية كمواطنين فرنسيين جديرين بالدفاع عن فرنسا، فان قسما عريضا من المجتمع الجزائري ونخبته كان معارضا للقانون جملة وتفصيلا، وعبروا عن رفضهم بطرق شتى من المقالات الصحفية الى العرائض والاحتجاجات ثم التمرد ورفض التجنيد والهجرة نحو الديار الإسلامية في المشرق العربي ففي سنة 1911 غادرت أكثر من الف ومائتي عائلة تلمسانية الجزائر للاستقرار ببلاد الشام حتى اطلق على ما حدث بالهلع الكبير<sup>17</sup>.

## 2.2 الدعاية الفرنسية اثناء الحرب:

عندما اندلعت الحرب، وفي 4 أوت 1914م بادرت ألمانيا إلى قبلة مينائي عنابة وسكيكدة. بواسطة طراد تين هما "غوبن" و"برسلاو". وكان هذا سببا كافيا للفرنسيين لإعلان حالة الحصار على كامل التراب الفرنسي.<sup>18</sup> كما وجهت نداء للجزائريين تبين فيه أن ساعة الحسم قد حانت، وان ألمانيا قد شنت عدوانها على فرنسا "المسلمة"، داعية إياهم إلى الدفاع عنها حتى الموت، لأنها إذا اندحرت - حسب زعمها - فان الحضارة ستشهد تراجعا بعدة قرون، مؤكدة في الوقت نفسه ضرورة الالتزام بالهدوء، والامتناع عن كل ما من شأنه إثارة الاضطراب.<sup>19</sup>

بادر الحاكم العام ليتو ابتداء من 17 أوت 1914، إلى إصدار تعليمات تقضي بمنع دخول مختلف المنشورات والصحف العربية والأجنبية إلى الجزائر، لمنع وصول معلومات الحرب والأوضاع في جبهات القتال المختلفة إلى الجزائريين. وفي المقابل ستتولى جريدة "المبشر" و"الاحبار" تغطية الأحداث وتقديم ما هو ضروري لأسماع الناس، وقد قامت السلطات الاستعمارية قبل ذلك أي في 1913 بإصدار جريدة "فرنسا الإسلامية"، وهي في الواقع جزء من سياستها الجديدة تجاه الراي العام الإسلامي في الجزائر وخارجه تهدف الى تلميع صورة فرنسا وابرازها كصديقة للمسلمين، وفي 1914 والتزامن مع اندلاع

<sup>16</sup>-انظر نص العريضة في: Claude collot, le mouvement national algérien, textes 1912- 1954,2é ed, OPU, alger,p23.

<sup>17</sup>- سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص129

18 - Ali Merad : la turcophilie, p374, note 39

19 - العجيلي: صدى حركة الجامعة.....مرجع سابق، ص 341.

الحرب أصدرت جريدة "أخبار الحرب"<sup>20</sup> التي شكلت منبرا إعلاميا دعائيا بامتياز، كما انشأ الفرنسيون جرائد أخرى عنيت بمواجهة الدعاية العثمانية -الألمانية قبيل وأثناء الحرب، منها "النصيحة" ل:قوسلان و"المغرب" بإشراف فونتانا، والقسم العربي من جريدة "الأخبار" و"فرنسا الإسلامية" و"أخبار الحرب" تحت إشراف "جان ميرانت، ثم كوكب إفريقيا ل:محمود كحول، وكان السيد لوسيان مدير الشؤون الأهلية يسافر إلى المشرق ويطلع على الأحوال هناك، ويبعث التقارير حول المرأة والتعليم...الخ.<sup>21</sup> وقد تركزت الضغوط والحجز على الجرائد التركية خاصة جريدة "الشباب التركي"، التي كانت تنشر -حسب الفرنسيين-معلومات مغرضة وأنباء كاذبة عن الحرب، تستقيها من وكالة "فولف" الألمانية.<sup>22</sup>

والحقيقة أن السلطات الفرنسية بأجهزتها المختلفة والنشيطه، تفننت في كتم أنفاس الجزائريين، وعزلهم عن كل ما يحيط بهم، كما ضيقت سبل التوجه إلى الأماكن المقدسة لأداء مناسك الحج، وحاولت منع العائدين أو عرقلة عودة الذين كانوا قد قضاوا مناسكهم في تلك السنة. (أواخر أكتوبر وبداية نوفمبر 1914). ولم تأذن للجزائريين بالحج في موسم 1915. ولم تسمح بذلك حتى نجاح ثورة الشريف حسين ضد الأتراك في عام 1916.

### 3.2 المضامين الدعائية وخطاب الاستقطاب:

حرصت الإدارة الفرنسية في بياناتها وتصريحاتها على الفصل بين الحكومة التركية المتورطة معها في الحرب من جهة، و"الشعب التركي الصديق والمسالم من جهة أخرى، وركزت في دعايتها على خطورة التحالف بين الحكومة التركية وألمانيا، معتبرة أن ذلك من شأنه الإضرار بمصلحة الإسلام.<sup>23</sup> أوضحت الحكومة العامة في بياناتها التي وجهتها للجزائريين أيضا، أن الحرب الدائرة لا تشكل مواجهة بين فرنسا والإسلام أو حكومة إسلامية، مؤكدة أن "فخا نصب للإسلام ولا بد من إحباطه وأنها لن تنتقم إلا من الألمان والمتواطئين معهم، وقالت إن الطموحات الشخصية لبعض الشبان الأتراك - الضارين بعرض الحائط بكل المشاعر الإسلامية - هم الذين أجازوا في ظل الهلال جرائم ألمانيا....إن فرنسا تحب الشعب التركي، وتبغض قيصر ألمانيا وتعمل جاهدة على دحر قوته الجهنمية". بل ان ليتوذهب إلى درجة الاستشهاد بأقوال النبي (ص) -على زورها -كقوله: "إن الله لا يحب الخونة". وكان يستجدي الجزائريين، واستنكر استغلال العثمانيين والألمان للعواطف الدينية للجزائريين. ولم

20- سعد الله: الحركة الوطنية ج.2، المرجع نفسه، ص261.

21- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقاني، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2008، ص 341.

22- نفس المرجع، ص 342 .

23 - Ali Merad: la turcophilie, op.cit, p 347.

يتورع المعمرون، عن فتح حملة تأخ مع الجزائريين بسبب ظروف الحرب، وقد أعلن شيخ بلدية الجزائر العاصمة الفرنسي، خلال الشهور الأولى للحرب أن "هناك بيننا، نحن الكولون، وبين مسلمي شمال إفريقيا علاقات وثيقة، كونها أولا تدريجيا وتأكيد المصالح المشتركة، ثم منذ بداية الحرب، أصبحت بيننا وبينهم أخوة مؤثرة خلقت في ميدان المعركة في وجه عدو مشترك"<sup>24</sup>.

كما تولى المفكرون والكتاب أمثال: بيرنار وميليا وديبارمي وغيرهم مواجهة الدعاية الألمانية والعثمانية بكتاباتهم وأطروحاتهم المختلفة، محاولين إبراز ولاء الجزائريين لفرنسا وتفنيد ما تنشره تلك الدعاية.

تنفست فرنسا الصعداء بنجاح العمليات العسكرية في الحجاز والشام تحت قيادة الشريف حسين وابناه ضد العثمانيين سنة 1916م، وكان ذلك النصر يصب في مصلحة دعايتها، وجنبتها متاعب كبيرة في الساحة الداخلية خاصة على الحجاج الجزائريين. وقد بعثت بالسلطات الفرنسية إثر ذلك بعثة دبلوماسية دعائية إلى الشريف حسين، كان الهدف منها كسب مزيدا من التأييد العربي ضد الدولة العثمانية.

ضمت البعثة 650 حاجا من إفريقيا الشمالية، الذين تم اختيارهم بعناية من بين الشخصيات الهامة والأعيان، جعلت على راسه الرائد "قاضي" محملة بالهدايا للشريف حسين باسم الحكومة الفرنسية<sup>25</sup>.

#### 4.2 الزعامات الدينية وخطاب التأييد:

لقد احتدم الصراع حول الإسلام بين فرنسا وألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى بشكل لافت، خاصة بعد إعلان الدولة العثمانية الجهاد، الأمر الذي جعل كل طرف يبحث عن الأدلة والبراهين للاستناد إليها والتدليل على صحة "سياستها الدينية" تجاه المسلمين. واشتد ذلك الصراع والتنافس أكثر حول استمالة رجال الدين والعمل على توظيفهم بين الطرفين. فالرأي العام الإسلامي حينها، كان لا يزال ينظر إلى رأي الشرع في مختلف المسائل التي تعترضه، وهذا الأمر أدركته الدول الغربية بشكل عميق فعملت على استغلاله.

لجأت فرنسا للبحث عن أقطاب دينية جديدة في مقابل قطب "الخلافة"، من شأنه أن يضيف المصداقية على سياستها الدينية، بغرض التأثير على رعاياها المسلمين التابعين لها. وقد وجدت ضالتها في توظيف رموز الدين في مستعمراتها وحملهم على "إعلانهم الولاء لها وعلى رؤوس الملا وإدانتهم لتركيا ضحية الابتزاز الألماني"<sup>26</sup>.

24 - سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص 264

25- نفسه ص 269.

26 - العجيلي: المرجع السابق، ص 348 .

وهكذا تحركت الأطر الإدارية الرسمية (كالمستشارين البلديين الأهليين بوهان قسنطينة، إضافة إلى مجلس إدارة الجمعية الثقافية الإسلامية بالجزائر) وكذلك الشبان الجزائريين الذين عبروا عن مناهضتهم للوزراء الشبان الأتراك التابعين "للقصر". وحذر بعضهم الحكومة العثمانية من التعويل على الشبان الجزائريين كما أكد أولئك الشبان تعلقهم المطلق بفرنسا.<sup>27</sup>

وبالمثل تحركت الأطر الدينية في الجزائر، على خطى الشبان الجزائريين (بحكم الوظيفة والامتيازات) كالمفتيين وشيوخ الطرق الصوفية، فقد عبر مفتي المذهبين المالكي والحنفي بالعاصمة والسادة المالكية والسادة الحنفية بقسنطينة وكبار مشايخ الطرق عن تقديم فروض الولاء والطاعة.<sup>28</sup>

استغلت فرنسا الفتاوى والتزكيات الصادرة عن مؤسسات وشخصيات دينية معروفة خارج الجزائر، للدعاية لسياستها الدينية وتعزيز موقعها في الحرب، كتلك الفتوى التي صدرت عن الأزهر الشريف والتي دعت المسلمين إلى التزام الهدوء والسكينة مبينة أن الحرب مضرّة لكل البلدان.<sup>29</sup> لقد نشرت تلك الفتاوى على صفحات مجلة العالم الإسلامي<sup>30</sup>، وبالأخص العدد الخاص من "النشرة العربية" الذي تضمن صور وإعلانات ولاء شخصيات دينية وسياسية هامة، كما يكون قد وزع على جنود من شمال إفريقيا في جهات القتال.

لا مندوحة من القول أن فروض الولاء تلك، جاءت من العناصر ذات المصالح والنفوذ، وهو الأمر الذي جعل بياناتهم تبدو رسمية بشكل علني وفاضح وذات محتوى فاقد لقوة الحجة والقدرة على الإقناع، وبها العديد من عبارات التملق ومجاراة الاحتلال مما يوحي أنها جاءت بطلب من السلطة ورضوخا لأوامرها. كما لا يستبعد أن تكون بعضها انتزعت من أهلها بالقوة.<sup>31</sup>

لقد أدرك الرأي العام الأهلي لغة النفاق وفقه مناورات المستعمر، ولم يندفع بها بل إنها كانت سببا في حدوث شبه قطيعة بينه وبين علماء الدين والإدارة الرسميين، كما كانت إحدى عوامل تراجع الطرقية وأقول بريقها أمام تصاعد التيارات الوطنية.<sup>32</sup>

والحقيقة أن فروض الولاء تلك جاءت أيضا من طرق دينية عرفت بنهجها الثوري والمعارض للاحتلال، كالطريقة الرحمانية يدفعنا إلى التخمين ان هناك سبل أخرى انتهجتها فرنسا لفرض الولاء فرضا وليس حبا.

27-Ageron: Les Algériens musulmans et la France, op,cit, p1175-1176

28-Revue du monde musulman , t2 , 8-10/16-20/...

29 -العجيلي : مرجع سابق ، ص 353 .

30 -انظر المجلدات 29(1914) 2(1915) 3(1915) .

31 العجيلي: نفسه، ص 353 .

32-Ali Merad: le réformisme musulman en Algérie, paris mouton,1967, p 57.

وعموما ففرنسا قد سخرت إمكانات مادية ووسائل لوجستية متنوعة وكلفت مختصين بدراسة طرائق الوصول الى الطرق وسبل ترويضها والاستفادة منها، وهي العملية التي بدأت في الواقع منذ نهاية القرن التاسع عشر، تمشيا مع توصيات بهذا الشأن من طرف الدارسين والمختصين.<sup>33</sup> توالى فروض الولاء وبيانات الدعم لفرنسا في الجزائر تباعا من الطرق الصوفية وكثير من مشائخ الزوايا وبعض الموظفين في السلك الديني خلال الحرب العالمية الأولى، وكان الهدف الرئيسي منها هو تحفيز المجندين الأهالي في الجيش الفرنسي في مختلف التشكيلات العسكرية على خوض غمار المعارك وثنيهم عن الفرار او الانضمام للألمان والأتراك.

من اهم رسائل الدعم تلك التي بعث بها شيخ الطريقة التيجانية وقد جاء فيها: "يا ايها الاحباب... قد استقر علمكم ان المانيا التعيسة جلبت هذه الحرب لجميع العالم بقصد توسيع ملكها واستعباد الاحرار وذلك لما اشتهرت به من التوحش والتجبر والكبرياء وقد قامت دولتنا العزيزة فرنسا عن مقاصدها الفاسدة خدمة للعدل والحق والإنسانية والعجب العجاب ان دولة تركيا الضعيفة تدخلت في هذه البلية التي دفعتها اليها المانيا فحالفها ولم تنتبه من غفلتها الى عاقبة الامر..."<sup>34</sup>.

### 3. الخاتمة:

33- الإشارة هنا إلى تلك الدراسات المعمقة التي اضطلع بها عدد من الكتاب والمستشرقين والتي انصبت حول المعرفة الدقيقة بخبايا وأسرار الطرق الصوفية وما لها من نفوذ على الأهالي وكيف يمكن الحد منه ومواجهته وخلصت إلى توصيات اضطلعت الحكومة العامة ومصالح الشؤون الأهلية إلى تنفيذها.

<sup>34</sup> -x, les musulmans français et la guerre, **Revue du monde musulman**, Ernest Leroux, paris, 1914, p196.

ان محورية الدين في حياة الشعوب قديما وحديثا جعلته محل تجاذبات بحق او بغير حق، والسياسيين في مجمل العصور والازمنة لا يتورعون من توظيفه، ذلك كان غرض الأطراف المتصارعة في الحرب العالمية الأولى، ولان كانت كفة الصراع ترجحت لصالح الطرف الفرنسي وحلفاءها على حساب خصومهم من الاتراك والالمان فان هذا لا يعني باي حال ان شعوب المنطقة او اعيانها وعلماءها كانوا متحمسين لهكذا انتصار او متأثرين لهزيمة، فهم ادركوا بانهم مجرد وقود في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ولا يمكنهم ان يأملوا تغيرا في أوضاعهم المزرية الا بما تكسبه ايديهم. كما ان الأطراف المتصارعة لم يكم يهملها من الدين سوى ما يحقق لها المكاسب، فهذه تركيا الجديدة قد ادارت ظهرها للخلافة (المتهاوية أصلا) وتنصل القادة الجدد من هويتهم بعد التغييرات المهولة التي أحدثها اتاتورك في عمق الدولة التركية.